الوصف في شعر الشعراء المكفوفين
بشار بن برد نموذجا

د. أحمد كامش

جامعة منتوري. قسنطينة. الجزائر

من القضايا التي تفرض نفسها كظاهرة بارزة في الشعر القديم، قدرة مجموعة كبيرة من الشعراء المكفوفين على أن تكون لهم قدم راسخة في الشعر. فمنذ " الأعشى " ومرورا ببشار بن برد وأبي العلاء المعري، كان لكفيف البصر قدم راسخة في الشعر، لفتت انتباه النقاد، وحاروا في تفسيرها، إذ كيف يتسنى لهؤلاء الذين حرموا نعمة البصر، وتعطلت إحدى أبرز حواسهم منذ الولادة أو بعدها بقليل أن يصوروا باللغة عالما لم يبصروه أو مرت به باصرتهم في الطفولة الأولى مرور سحابة الصيف ؟ من أين يتأتى لذلك المحروم أن يخلق بالشعر عالما من الصور التي يجمع فيها بين الواقع والخيال.

من هنا وقع اختياري على جعل الوصف بوّابة الحديث عن بشار، إذ الإلمام بهذا الغرض إلمام بمناحي الشعر عنده لأنّ " **الشعر إلاّ أقلّه راجع إلى باب الوصف** ".[1]

---

[1] ابن رشيق: أبو علي الحسن. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. تح محمد محي الدين عبد الحميد. دار الجيل. بيروت.لبنان. 2 / 294.

وبشار بن برد من الشعراء العباقرة القلائل، الذين تمكنّوا من تذليل عاهتهم وجعلوها مطيّة ركبوها، ونثروا أشعارهم في الآفاق، فكان عبقا أثلج النفوس ودافعا للتحرّر من قيود العاهة التي تقف، في الغالب، حجرة عثرة أمامهم.

ولد بشار بن برد أكمها لم ينظر إلى الدنيا قطّ، ولكنّه كان ذا فطنة. سأله الأصمعي يوما " من أين لك هذا الذكاء ؟ " فقال: من قدم العمى؛ وعدم النواظر يمنع من كثير من الخواطر المذهلة فيكسب فراغ الذّهن؛ وصحّة الذكاء، وأنشد لنفسه يفخر بالعمى:[1]

عميت جنينا والذكاء من العمى ... فجئت عجيب الظنّ للعلم موئلا

وغاض ضياء العين للعقل رافدا ... بقلب إذا ما ضيّع النّاس حصّلا

وشعر كنَورِ الرّوض لا أمت بينه ... بقول إذا ما أحزن الشعرُ أسهلا

كان بشّار على عماه ذكيا فطنا منذ صغره، قال الشعر ولمّا يبلغ عشر سنين، وكان أول عهده بالشعر يهجو الناس " فإذا هجا قوما جاؤوا إلى أبيه فشكوه فيضربه ضربا شديدا، فكانت أمه تقول: كم تضرب هذا الصبي الضرير، أما ترحمه ؟ فيقول: بلى والله إني لأرحمه، ولكنه يتعرض للناس فيشكونه إلي، فسمعه بشار فطمع فيه فقال له: يا أبت إن هذا الذي يشكونه مني إليك هو قول الشعر، وإني إن ألممت عليه أغنيتك وسائر أهلي، فإن شكوني إليك فقل لهم أليس الله يقول: ﴿ ليس على الأعمى حَرَجٌ ﴾ فلما

---

[1] القالي:أبي علي إسماعيل بن القاسم. الأمالي. دار الكتب العلمية. ط 01 . بيروت. 1996. 1 / 509.

عاودوه شكواه قال لهم بُرد ما قاله بشار، فانصرفوا وهم يقولون: فقّه بُرد أغْيظ لنا من شعر بشار".[1]

وقد أورث العمى بشّارا مزاجا عصبيّا حادا وصدرا ضيّقا صار بموجبه من أشدّ الخلق تبرّما بالنّاس، وكان يكثر من هذا الدّعاء " اللهم إنّي تبرّمت بنفسي وبالنّاس جميعا، اللهم فارحمني منهم ".[2] وعندما قال له رجل " إنّه لم يذهب بصر رجل إلاّ عُوّض من بصره شيئا فما عُوّضت أنت من بصرك ؟ قال: أن لا أراك فأموت غمّا ".[3]

يقابل هذا المزاج الصّعب؛ روح فكهة تميل إلى المرح وتطرب لسماع النكتة وقولها. قال راويته يحي بن الجون العبدي: " كنّا عند بشّار يوما فأنشدنا قوله:

وجاريّة خلقت وحدها ... كأنّ النّساء لديها خدم

إلى أن يقول:

فلمّا رأيت الهوى قاتلي ... ولست بجار ولا بابن عم

دسست لها أبا مجلز ... وأيّ فتى إن أصاب اعتـــزم

فما زال حتّى أنابت له ... فـــراح وحلّ لنا ما حرُم

---

[1] الإصفهاني: أبو الفرج. الأغاني. شرح وتهميش أ / عبد أ علي مهنّا و أ / سمير جابر. دار الفكر. لبنان. 3 / 205.

[2] نفسه 3 / 204.

[3] ذيل الأمالي. القالي. 3 / 30.

فقال له رجل: " ومن أبو مجلز هذا يا أبا معاذ ؟ " قال: " وما حاجتك إليه ؟ ألك عليه دين ؟ أو تطالبه بطائلة ؟ هو رجل يتردّد بيني وبين معارفي في رسائل ".[1]

ومثله ما ذكر من أنّه " أنشد يوما شعرا له فقال فيه:

غنّني للغريض يا بن قنّان .....

فقيل له: من ابن قنّان هذا، لسنا نعرفه من مغنّي البصرة ؟ قال: ومالكم منه ؟ ألكم من قبله دين فتطالبوه به، أو ثأر تريدون أن تدركوه، أو كفلت لكم به فإذا غاب طالبتموني بإحضاره ؟ قالوا ليس بيننا وبينه شيء من هذا، وإنّما أردنا أن نعرفه. فقال: هو رجل يغنّي لي ولا يخرج من بيتي، فقالوا: إلى متى ؟ قال: مذ يوم ولد وإلى يوم يموت ".[2]

لقد كان بشار، وهو الشاعر الضرير، يملك القدرة التي تؤهله ليفي بموضوع غرضه، فكان خير مجسد للوصف لدرجة إبداعه للوحات أفرزت مكامن عبقريته، ودلت على ريادته في تعامله مع البيئة التي تحيط به، ناهيك

عن إلمامه بتفاصيل الوصف، معللا جزئيات موصوفه، إضافة إلى دقّته وموضوعيّته في طريقة عرض وإخراج كثير من الفنون الجديدة والتشبيهات المتعددة، لا سميا أن الوصف، بحد ذاته، يلزمه مقدرة فنية كبيرة. قال الأصمعي: " **ولد بشار أعمى، فما نظر إلى الدنيا قط، وكان يشبّه الأشياء بعضها ببعض في شعره، فيأتي بما لايقدر البصراء أن يأتوا بمثله** ".[3]

---

(1) الأغاني: 3 / 158.

(2) الأغاني: 3 / 157.

(3) الأغاني. ج 3 ص 133.

ومن العجيب أن يحتل الوصف مكانة بارزة في قصائده، والوصف غرض يقوم على حاسة البصر بالدرجة الأولى، وهو كما أسلفنا شاعر كفيف، لكنّه عني بوصف المرئيات، بأوصاف نالها من ثقافته أو من خلال ما سمع، وما قدمته له الحواس الأخرى من مدد، فيصف ميدان معركة بقوله:[1]

وجـــيش كجـــنح الليـــل يزحـــف بالحصـــا
بالشـــوك والخطّـــي جمـــر ثعالبـــه
غـــددنا لـــه والشـــمس فـــي خـــدر أمهـــا
تطالعنـــا والطـــل لـــم يجـــر ذائبـــه
بضـــرب يـــذوق المـــوت مـــن ذاق طعمـــه
ويـــدرك مـــن نجـــى الفـــرار مثالبـــه
فراحـــوا فريقـــا فـــي الإســـار ومثلـــه
فريـــق تـــولى والفـــرار مثالبـــه
كـــأن مثـــار النقـــع فـــوق رؤوســـنا
وأســـيافنا ليـــل تهـــاوى كواكبـــه

لم يحضر بشار بن برد، ولم يشارك في حرب من الحروب، لكنه سمع عنها وفي وصفها ما أتاح له أن يجسدها في صور حية عجز عنها المبصرون.

إنّها صورة بديعة، أراد أن يظهر من خلالها تفوقه على المبصرين، ولم يكن لديه وسيلة لبلوغ ذلك سوى استنفار كلّ جوارحه لتعبّر عن

---

[1] أمالي القالي. 2 / 126.

وجوده، من أجل ذلك أشار في غير موضع من أشعاره إلى أنه أجاد الوصف مع أنه ضرير. وقد ذكر ذلك على لسان إحدى النساء:[1]

عجبت فطمة من نعتي لها هل يجيد النعت مكفوف البصر

لا شك أن بشارا أحس بما لا يشعر به الكثيرين، وبما يثير عجبهم، فهذه فتاة تتحدث مع أصحابها وقد تملّكتها الدهشة ... لدرجة غزا العشق قلبه، فملأت الحسرة نفسه، وتحشرجت أنفاسه، وأوشك أن يختنق بدموعه الغزيرة:[2]

وكاعب قالت لأترابها
يا قوم ما أعجب هذا الضرير
هل يعشق الإنسان من لا يرى
فقلت والدمع بعيني غزير
إن تك عيني لا ترى وجهها
فإنّها قد صُوِّرت في الضمير

وقلما ارتفع بشار في أوصافه عن الحس والسمع، لأنه يردد أن الخيط الذي يربط العين بالجمال وتذوقه لا يقل قوة عن الخيط نفسه الذي يربط السمع بنداء العقل. وفي قصيدته التي وصف فيها مغنية سمعها تطرق على الدف انسابت تلك الألحان إلى أذنيه، فبدت له كالبدر في صوره الرائعة فقال:[3]

---

[1] الأغاني. 3 / 165.

[2] المازني: إبراهيم عبد القادر. بشار. سلسلة " أعلام الإسلام ". دار إحياء الكتب العربية.1944. ص 23.

[3] فعماه دفعه لوصف لوعة الحب والسهاد الطويل.

وذات دلّ كأنبب البدر صورتها قامت تغني عميد القلب سكرانا
يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيـــانا

كان بشار يعلم أن لا طاقة له بمباراة غيره من الشعراء المبصرين، خاصّة عندما يتحوّل الوصف إلى هجاءه، وكان أوجعه في نفسه ما يشير فيه صاحبه إلى عاهته، ولذلك بكى بشّار عندما هجاه حمّاد عجرد بقوله:[1]

ويا أقبح من قرد إذا ما عمي القرد

ولمّا سئل عمّا يبكيه من هذا الشعر قال: إنّه يراني ولا أراه.

وهجاه أبو هشام الباهلي بشعر قبيح لا يروى وعيّره بعماه وقالوا: " **ولم يزل بشار مذ قال فيه هذين البيتين منكسرا** ".[2]

كان بشّار، إذن، مكشوفا لبصر خصومه، وهم مستورون عنه، وهو ما أزعجه في وصف حمّاد له وتشبيهه بالقرد، إذ صادفت هذه الصورة عنده إحساسا بسوء الطّبع وقبح المظهر. ومع ذلك فقد تسنّم ذروة الشعر العربي القديم ردحا من الزمن، وأقرّ له القدماء بالتّفوّق والعبقريّة، فهذا الجاحظ يقول عنه حين هاجى حماد عجرد " **ما كان ينبغي لبشار أن يضاد حماد عجرد من جهة الشعر لأنّ حمّادا في الحضيض وبشّار في العيّوق، وليس مولد قروي يعدّ شعره في المحدث إلاّ وبشار أشعر منه، ولا نعلم مولّدا بعد بشّار أشعر من أبي نوّاس** ".[3]

---

[1] ابن قتيبة: أبي محمد عبد الله بن مسلم الدينوري. الشعر والشعراء. تح د / عمر الطبّاع. دار الأرقم. بيروت. ط 01. 1997. ص 551. وانظر الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر. البيان والتبيين. تح د / درويش جويدي. المكتبة العصرية. صيدا. بيروت. 2001. 1 / 27.

[2] الأغاني. 3 / 133.

[3] ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. 1 / 110.

لقد اعتمد بشار في وصفه على جوارح أخرى، ومن هنا جاءت إشادته بالقلب والأذن ورؤوس الأصابع وغيرها. قال في بيان أنّ العينان قد لا تكونان ضروريتان في كلّ موطن:[1]

يزهّدني في وصل عزّة معشر
قلوبهم فيها مخالفة قلبي
فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتضى
فبالقلب لا بالعينين يبصر ذو اللبّ
وما تبصر العينان في موضع الهوى
ولا تسمع الأذنان إلاّ من القلب
وما الحسن إلاّ كلّ حسن دعا الصبا
وألّف بين العشق والعاشق الصبّ

ومن شعره الذي يظهر براعته في الوصف، ويبيّن أنّ مهمّة الأذن، عنده، لاتقلّ عن مهمة العين في تصوير الأشياء قوله:[2]

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لاترى تهذي فقلت لهم الأذن كالعين تؤتي القلب ما كانا

وأجاب عاذليه في حبّها ولم ترها عيناه قائلا:[3]

قالت عقيل بن كعب إذ تعلّقها قلبي فأضحى به من حبّها أثر
أنّى ولم ترها تصبو فقلت لهم: إنّ الفؤاد يرى ما لايرى البصر

---

(1) أمالي القالي. 2 / 57.

(2) الديوان: ص 612. عدّ ابن رشيق البيتين ممّا انفرد به بشار. انظر العمدة: 2 / 242.

(3) نفسه: ص 446 / 447.

ويخاطب " أمامة " بأن جمالها الذي وصفت به لا يكفي، وأنه لابد له من لمسها:[1]

أمامة قد وصفت لنا بحسن وإنا لا نراك فالمسينا

وقال في وصف السفينة من قصيدة في مدح المهدي:[2]

وعـــــذراء لا تجـــــري بلحـــــم ودم
قليلـــة شـــكوى الأيـــن مُلجمـــة الـــدُّبر
إذا ظعنـــت فيهـــا الفلـــول تشخّصـــت
بفرســـانها لا فـــي وعـــوث ولا وعـــر
وإن قصـــدت زلّـــت علـــى متنصّـــب
ذليـــل القـــوى لاشـــيء يفـــري كمـــا تفـــري
تلاعـــب نينـــان البحـــور وربّمـــا
رأيـــت نفـــوس القـــوم مـــن جريهـــا تجـــري

وقال في وصف مغنية:[3]

ورائحـــة للعـــين فيهـــا مخيلـــة
إذا برقـــت لـــم تســـق بطـــن صـــعيد
مـــن المســـتهلاّت الهمـــوم علـــى الفتـــى
خفـــا برقهـــا فـــي عصـــفر وعقـــود

---

[1] نفسه : ص 612.

[2] نفسه. ص 509.

[3] الشريف المرتضى: علي بن الحسين. غرر الفوائد ودرر القلائد المعروف بأمالي المرتضى. تح محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الكتاب العربي. بيروت. ط 02. 1967. 2 / 138. والأبيات في ديوانه ص 274 / 275.

حسدت عليها كلّ شيء يمسّها
وما كنت لولا حبّها بحسود
وأصفر مثل الزعفران شربته
على صوت صفراء الترائب رزد
كأنّ أميرا جالسا في ثيابها
تؤمّل رؤياه عُيون وفود
من البيض لم تسرح على أهل ثلّة
سواما ولم ترفع حداج قعود
تميت به ألبابنا وقلوبنا
مرارا وتحييهنّ بعد همود
إذا نطقت صحنا وصاح لنا الصّدى
صياح جنود وُجّهت لجنود
ظللنا بذاك الدّيدن اليوم كلّه
كأنّا من الفردوس تحت خلود
ولابأس إلاّ أنّنا عند أهلنا
شهود وما ألبابنا بشهود

قال علي بن هارون عن أبيه أنّ هذه الأبيات من بارع شعر بشّار. وقال عليّ: " **وما في الدّنيا سيء لقديم ولا محدث من منثور ولا منظوم في صفة الغناء واستحسانه مثل هذه الأبيات** ".[1]

وقال في وصف النهر من قصيدة مدح بها ابن هبيرة:[2]

---

[1] نفسه. الصفحة نفسها.

[2] الديوان: ص 49 / 50.

وملعب النّون يُرى بطنه
من ظهره أخضر مستصعب
غضبان إن تأخذ عليه الضّبا
يفحش على البوصي أو يصخب
كأنّ أصواتا بأرجاءه
من جندب فاض إلى جندب
ركبتُ في أهواله ثيّبا
إليك أو عذراء لم تُركب
لمّا تيمّمت على ظهرها
لمجلس في بطنها الحوشب
هيّأت فيها حين خيّشتها
من حالك اللّون ومن أصهب
فأصبحت جارية بطنها
ملآن من شتّى فلم تُضرب
لا تشتكي الأين إذا ما انتحت
تُهدى بها بعدها قُلّب
عاري الذّراعين لتحريزها
من مسرب غار إلى مسرب
إذا انجلى عنها بتياره
وارفض آل الشّرف الأجدب
ذكرت من هقل غدا خاضبا
و هقلة ربداء لم تخضب

تصـــــــــرّ أحيانـــــــــا بســـــــــكّانها
صـــــرير بـــــاب الـــــدّار فـــــي المِـــــذنب
بمثلهـــــا يُجتـــــاز فـــــي مثلـــــه
إن جـــــدّ جـــــدّت ثـــــم لـــــم نلعـــــب
دُعمـــــوص نهـــــر أنشـــــبت وســـــطه
إن تنعـــــب الـــــرّيح لهـــــا تنعـــــب

ومن هنا يمكن القول بأنّ هذه الصورة تحقق أنّ الرجل كانت له جوارح أخرى يرسم من خلالها موصوفه، وهو ما جعل الجاحظ يقول عنه وعن الأعشى: " **وهذان أعميان، قد اهتديا من حقائق هذا الأمر إلى ما لا يبلغه تمييز البصير. ولبشّار خاصّة في هذا الباب ما ليس لأحد**".[1]

[1] الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر. البيان والتبيين. تح د / درويش جويدي. المكتبة العصرية. صيدا. بيروت. 2001. 1 / 141.